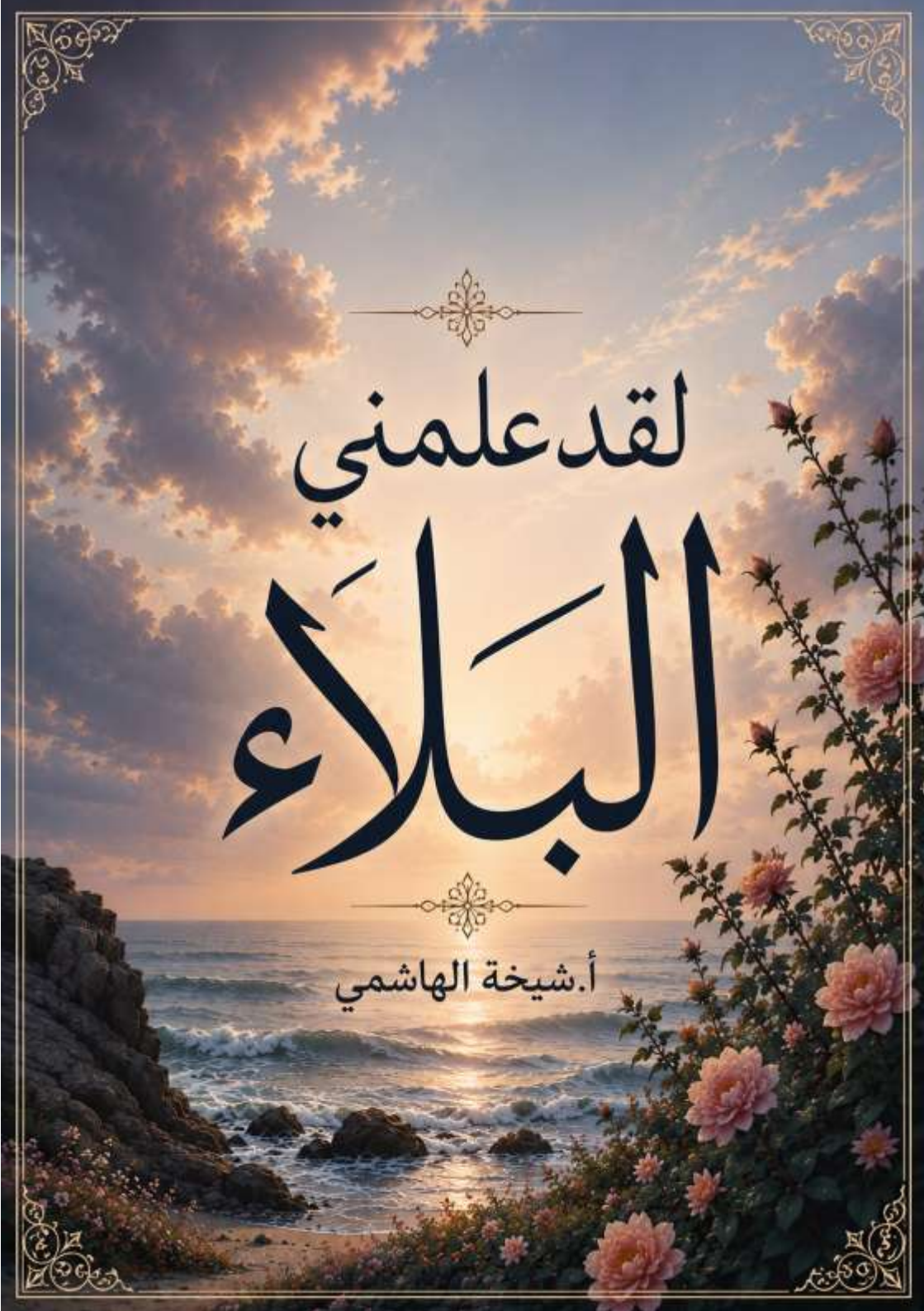
لقد علمني
البَلاَء
أ.شيخة الهاشمي

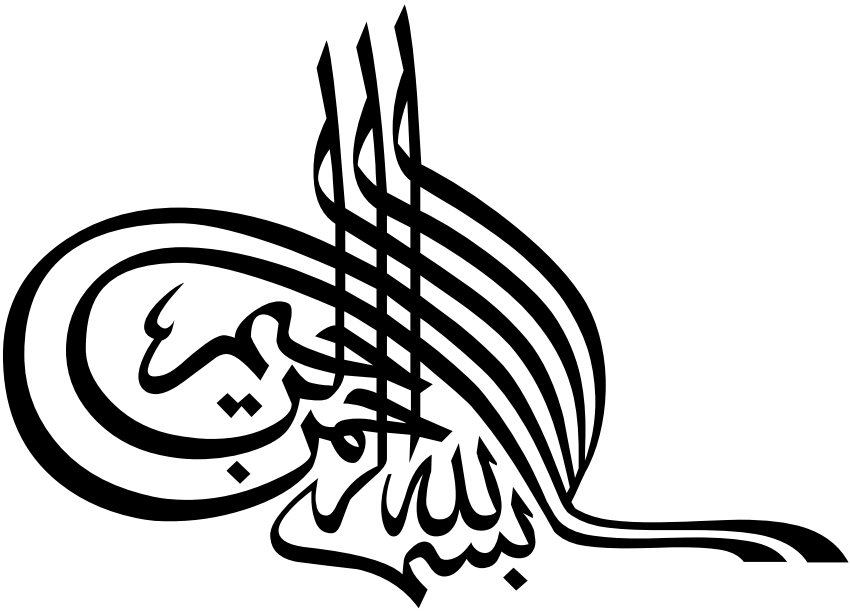
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	الصفحة
لقد علّمني البلاء	١
إهداء	١
ليس لي إلا الله	٢
علة البلاء في نظرتنا إليه	٤
البلاء سنة مرتبطة بوجود الإنسان	٦
الدنيا دار كدر لا دار قرار	٨
الابتلاء قشرة يتشكل داخلها الإنسان	١٠
البلاء يحمل على همة الروح	١٢
الإيمان يحصر البلاء في مقداره	١٤
ضوء الإيمان يكشف حقيقة الأشياء	١٦
البلاء يجرّد القلب لله	١٨

البلاء مدرسة العبودية ٢٠
أصول جامعة في فهم المصائب ٢١
البلاء يكون بالخير والشر ٢٣
هل كل مصيبة عقوبة؟ ٢٥
البلاء ليس دائمًا دليل غضب ٢٧
البلاء تمحيص للقلوب ٢٩
البلاء دواء للقلب ٣١
البلاء يصنع الإنسان ٣٣
البلاء يعرفنا قدر النعم ٣٤
البلاء يعلمنا الشوق إلى الجنة ٣٥
البلاء يفتح باب الدعاء ٣٦
البلاء يعلم الرضا بالقضاء ٣٨
حسن الظن بالله وسط المحنة ٤٠
قد يكون المنع حماية ٤١
مع العسر يسر ٤٢
الصبر الجميل ٤٣

انتظار الأجر يهون الألم..... ٤٥
البلاء قد يكون طريقًا إلى التمكين..... ٤٧
مجاهدة الحياة موطن الفضائل..... ٤٨
النظر إلى من هو أشد بلاء..... ٥٠
حمد الله داخل المصيبة..... ٥٢
أسباب مشروعة لدفع البلاء وكشفه..... ٥٣
العلاج لا ينافي الرضا..... ٥٥
حين يتحول الحزن إلى خطر..... ٥٦
ماذا علّمني البلاء؟..... ٥٨
خاتمة..... ٦٠

لقد علّمني البلاء

إهداء

إلى كل مؤمن مهموم، وكل مبتلى مغموم، وكل مكروب ضاقت عليه السبل، وانقطعت في عينيه الأسباب المادية.

إلى من أوجعه البلاء، حتى خُيّل إليه أن الحياة أغلقت أبوابها، وأن ليل الحزن قد طال حتى لا يكاد ينقضي.

إلى من ذهبت حيلته، وعجزت قوته، وتخلى الخلق عنه، وليس له إلا باب الله جَلَّ جَلَالُهُ.

تذكروا إمام الأولين والآخرين والمبتلين وقدوتهم وقائدهم، رسولنا ﷺ، الذي أوذي في الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وحوصر، وأُخرج من وطنه، وفقد أحبابه، وقاسى من قومه ما قاسى، وما أشد قرن الثعالب، فما زاده البلاء إلا عبوديةً وثباتًا ويقينًا.

ليس لي إلا الله

لقد علَّمني البلاء أنَّه ليس لي على الحقيقة إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فهو الملجأ، والملاذ الآمن، والركن الشديد إذا انقطعت الأسباب، وخذلك القريب والبعيد. وهو الودود، الرؤوف، الرحيم، الذي لا يرد المنكسرين، والجبار، اللطيف، الخبير، الذي لا يضيع من تعلَّق به، وأحسن الظنَّ به، وفوَّض إليه أمره

وعلّمني أن البشر، مهما أحبوا وأخلصوا، محدودون بقدرتهم، محكومون بضعفهم، لا يستطيعون دفع ما قدّر الله، ولا جلب ما لم يكتبه. أما الله جَلَّ جَلَالُهُ فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإذا أراد أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون.

وحين تذهب الحيل، وتوصد الأبواب، وتنفد الوسائل، يفهم القلب معنى قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

ويذوق حقيقة قوله سبحانه:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فيعلم أن الاســتعانة ليســت مجرد كلمة يجري بها اللسـان، وإنما مقام عظيم يعيش القلب مشـاهده حين يتجرد من الاعتماد على نفســه، ويوقن أن الحول والقوة والعزة جميعها لله وحده وبه.

علة البلاء في نظرتنا إليه

قال مصطفى صادق الرافعي في [رسائل الأحزان]:

"إنما علة البلاء من ناحيتنا نحن، ثم من هذه الجهة الفانية، جهة الجسم الذي يستيقن أنه يعيش ليموت، وهو مع ذلك يقبل المقدمات وحدها ويحاول دائما أن يفر من نتائجها، كأن النتيجة ليست المقدمة، والآخرة ليست في الأولى".

وهذه كلمة عميقة تكشف جانبًا من اضطراب الإنسان أمام المصائب؛ فهو يعلم أن الدنيا فانية، وأن الصحة ستنتهي، وأن الأحبة سيفترقون، وأن كل حي سيموت، ولكنه يعيش في كثير من أحواله كأن تلك الحقائق لا تعنيه.

يقبل الحياة، ولكنه يرفض لوازمها. يحب الاجتماع، ولا يريد أن يعترف بإمكان الفراق. يفرح بالصحة، ثم يفاجئه المرض كأنه أمر لم يكن واردًا. يعلم أن الدنيا دار

عبور، ثم يتعلق بها تعلق المقيم الذي لا يرحل.

ومن هنا يشتد وقع البلاء؛ لا لأنه دائمًا أكبر من قدرة الإنسـان، ولكن لأن النفس لم توطن نفسـها على طبيعة الدار، ولم تنظر إلى الدنيا في ضوء الآخرة.

ولو اســـتقر في القلـب أن الـدنيـا مقـدمـة والآخرة نتيجتها، وأن الموت ليس انقطاعًا محضًـــا بل انتقال، وأن فقد المؤمن في الدنيا ليس فناءً أبديًا، لهان مِن وقع المصائب ما لا يهون بالنظر إليها من جهة الجسد وحده.

البلاء سنة مرتبطة بوجود الإنسان

لقد علّمني البلاء أنه ليس حادثًا غريبًا عن الحياة، ولا استثناءً يختص به أناس دون آخرين، بل هو سنة إلهية مرتبطة بوجود الإنسان على هذه الأرض.

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

وقال سبحانه:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالابتلاء قديم منذ بدء الحياة البشرية، وقد جرى على آدم وذريته، وعلى الأنبياء وأتباعهم، وعلى الأمم

والأفراد، ولن ينفك عن هذه الدار؛ لأنها لم تخلق لتكون دار فردوس أرضي، وإنما خلقت دار عمل واختبار وفناء، يمتزج فيها الفرح بالحزن، والصحة بالسقم، والاجتماع بالفقد، والعطاء بالمنع.

ولهذا يقول ابن القيم [مدارج السالكين]: "قال لي شيخ الإسلام مرة: العوارض والمحن هي كالحر والبرد، فإذا علم العبد أنه لابد منهما لم يغضب لورودها، ولم يغتم لذلك ولم يحزن".

وليس المراد نفي الحزن الفطري، وإنما المراد ألا يستقبل الإنسان المحنة استقبال من ظن أنه وُعد بدنيا خالية من الأكدار، ثم فوجئ بخلاف ما وُعد.

الدنيا دار كدر لا دار قرار

لقد علّمني البلاء حقيقة الدنيا، وأنها مهما زخرفت لأهلها، فإن صـفوها لا يدوم، ونعيمها لا يكتمل، وعزها لا يبقى، وغناها لا يؤمن عليه الزوال، وجاهها وسلطانها إلى انقضاء.

ما من نعمة دنيوية إلا ويخالطها شـيء من النقص، أو يهددها الفوات، أو يعقبها الفراق. قد ينال الإنسـان مالًا، ويفقد معه سـكون القلب، أو ينال منصـبًا فتثقله تبعاته، أو يرزق محبوبًا فيظل خائفًا من فقده.

قال الله تعالى:

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فالأيام دولٌ، يتقلب أهلها بين السـراء والضـراء، فلا حزن يدوم ولا سرور.

ومن وعى هذه السـنة الربانية، لم تغره النعمة، ولم

تكسره المحنة، بل ظل قلبه ساجدًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في محراب العبودية، قائمًا في السراء بالشكر، وفي الضراء بالصبر، مستيقنًا أن ليس له إلا الله جَلَّ جَلَالُهُ.

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه [إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان]:

"ومن رحمته: أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها ويرغبوا فى النعيم المقيم فى داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم".

فمن حكمة ما في الدنيا من النقص ألا يتخذها المؤمن وطنًا لقلبه، وألا يطلب فيها كمالًا لم يجعله الله إلا في الجنة.

الابتلاء قشرة يتشكل داخلها الإنسان

ومن أجمل ما نُقل عن الرافعي في كتابه [وحي القلم] في تصوير أثر المحنة قوله:

"ومثل الابتلاء كقشر البيضة؛ سجن لما فيها، تحفظ ما بداخلها حتى يتشكل ويخرج بعد ذلك خلقًا آخر. وكذلك المبتلى يكون ابتلاؤه سجنًا له، ويُشكِّل وهو فيه، حتى يخرج من الابتلاء وهو خلق آخر".

فالمحنة قد تضيق على الإنسان حتى يشعر أنه محبوس داخلها، لا يرى إلا جدران الألم، ولا يدرك ما يجري في باطنه من إعادة تشكيل.

فقد يدخل البلاء بشخصية ويخرج منه بشخصية أخرى؛ أهدأ نفسًا، وأعمق نظرًا، وأشد افتقارًا إلى الله جل وعلا، وأقل اغترارًا بالدنيا، وأكثر رحمة بالمبتلين.

وكم من إنسان لم تكن المواعظ المجردة قادرة على تغيير تصوراته، ومعاييره، فجاءت المحنة فعلمته

في أيام ما لم تعلمه إياه سنون الرخاء.

فـالبلاء قـد ينزع من النفس كبرهـا، ومن القلـب غفلته، ومن الحياة فضـــولها، ويعيد ترتيب الأولويات، حتى يعرف الإنســان ما يســتحق أن يحزن عليه، وما لا يســـتحق، وما ينبغي أن يبقى، وما كان يجب أن يزول منذ زمن.

البلاء يحمل على همة الروح

قال الرافعي في [وحي القلم]:

"إن هذه الأرض تحمل الجبال فلا يشـــعر موضـــع منها بالجبل القائم عليه، إذ كان تماسك الأرض كلها قد جعل لكل موضـــع منها قوة الجميع، ولولا هذا لدك الجبل موضـــعه وغار به؛ وكذلك يحمل المؤمن مثل الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدم؛ إذ كانت قوة روحه قوة في كل موضع، فالبلاء محمول على همة الروح لا على الجسم".

فالإنســـان لا يحمل البلاء بقوة جســـده وحدها؛ فقد يكون الجسم ضعيفًا، ولكن الروح الموصولة بالله جَلَّ جَلَالُهُ ثابتة. وقد يكون البدن صـــحيحًا قويًا، ثم يهدمه الخوف وسوء الظن والهلع.

ومتى قويت الروح بالإيمان، حملت من الأوجاع ما يعجز غيرها عن حمله؛ لا لأن المؤمن لا يتألم، وإنما لأن

ألمه لا يبقى مجرد ألم مادي أعمى، بل يتصـــل بمعنى الصبر، والاحتساب، والرجاء، وانتظار الثواب.

فيتحول الألم من وجع ضـــائع إلى عبـادة، ومن خســـارة مجردة إلى أجر، ومن ظلمة مغلقة إلى طريق ينتهي بالله ورضوانه.

الإيمان يحصر البلاء في مقداره

ومن أبلغ ما قاله الرافعي في [وحي القلم]:

"وعزيمة الإيمان إذا هي قويت حصــرت البلاء في مقداره، فإذا حصــرته لم تزل تنقص من معانيه شــيئا شــيئا، فإذا ضــعفت هذه العزيمة جاء البلاء غامرًا متفشــيا يجاوز مقداره بما يصــحبه من الخوف والروع، فلا تزال معانيه تزيد شــيئا فشــيئا بما فيه وبما ليس فيه".

وهذه حقيقة تشهد بها التجربة؛ فقد تنزل المصيبة محدودة في واقعها، ثم تضــيف إليها النفس عشــرات المصائب المتوهمة: ماذا سيحدث غدًا؟ وهل يستمر الأمر؟ وهل أفقد كل شيء؟ وهل انتهت حياتي؟

فيصبح الإنسان لا يحمل الواقعة وحدها، بل يحمل معها أوهام المستقبل كلها.

أما الإيمان فيرد البلاء إلى حجمه الحقيقي، ويمنع

الخوف من أن يضـــيف إليه ما ليس فيه، ويذكر العبد بأن المســـتقبل بيد الله، وأن ما لم يقع لا ينبغي أن يُحمل همه قبل وقوعه، وأن الله الذي أعانه على يومه قادر على أن يعينه على غده.

قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

فالبلاء واحد، ولكن القلوب تختلف في تلقيه؛ قلب يحصـــره في قدره ويســـتعين بالله عليه، وقلب يوســـعه بالخوف والظنون حتى يصبح أضعاف حقيقته.

ضوء الإيمان يكشف حقيقة الأشياء

وقال الرافعي:

"وللإيمان ضــوء في النفس ينير ما حولها فتراه على حقيقته الفانية وشــيكًا أن يزول؛ فإذا انطفأ هذا الضــوء انطمســـت الأشـــيـاء، فتتوهَّمهـا النفس أوهـامًـا متباينة٤على أحوالها المختلفة؛ كما يرى الأعمى بوهمه: لا عينُهُ مع الأشــياء تكون في طبيعتها، ولا أشــياؤه عند عينه تكون في حقيقتها".

فالإيمان لا يغير حقيقة الدنيا فحســـب، بل يغير طريقـة رؤيتنـا لهـا. يرى المؤمن المـال نعمـة زائلـة، والصـــحـة عـاريـة مردودة، والعمر طريقًـا إلى الآخرة، والمصيبة وقتًا محدودًا مهما طال.

أما إذا خبا نور الإيمان، تضخمت الأشياء في النفس؛ فيصـــبح فقد المال فقدًا لكل الحياة، وتعثر أمر نهاية لكل أمل، وموت محبوب انطفاءً مطلقًا لا لقاء بعده.

ولذلك كانت أعظم وظيفة للإيمان في زمن الشـدائد أن يعيد الأشـياء إلى مقاييسـها الصـحيحة؛ فلا يصـغر ما عظمه الله، ولا يعظم ما حقّره الله، ولا يجعل الدنيا أكبر الهم ولا مبلغ العلم.

البلاء يجرّد القلب لله

لقد علّمني البلاء أن اشتداد المحنة قد يكون سببًا في تخليص القلب من التفاته إلى غير الله جَلَّ جَلَالُهُ؛ لأن الإنسان ما دام يرى حوله أسبابًا يعتمد عليها، وقوة يركن إليها، وخلقًا يرجوهم، فقد يتعلق قلبه بشيء من ذلك.

فإذا انقطعت الأسباب، وضاقت السبل، وعجز الخلق، أدرك القلب أنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

وحينئذ يتذوق العبد معنى الافتقار، ويعلم أن الأسباب أبواب يسخرها الله متى شاء، ويعطلها متى شاء، وأن الطبيب والدواء والمال والجاه لا تنفع بذواتها، وإنما تنفع بإذن مسبب الأسباب.

قال تعالى:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾

[النمل: ٦٢].

ومـا أعظم أن يبلغ العبـد هـذه المنزلـة؛ أن يرى افتقـاره إلى ربـه في كـل نفس، وأن يعلم أنـه لا يملـك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله.

البلاء مدرسة العبودية

لقد علّمني البلاء لذة العبادة، وحلاوة المناجاة، والأنس بالقرآن، والانكسار في السجود.

وكم من إنسان كان يؤدي عباداته على سبيل العادة، فلما نزل به البلاء أحيا الله قلبه، فأصبح يجد في الدعاء حياة، وفي الصلاة راحة، وفي الذكر سكينة، وفي القرآن شفاء.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢].

غير أن تمام الانتفاع بالبلاء ألا تكون معرفة العبد بربه مقصورة على أوقات الشدة، بل يكون البلاء بداية رجوع دائم، لا انكسارًا مؤقتًا ينتهي بانتهاء المحنة.

فمن أعظم ثمرات البلاء أن يخرج العبد منه أكثر عبودية، وأشد تعلقًا بالله، وأوفى بعهده وميثاقه بعد العافية.

أصول جامعة في فهم المصائب

وهنا تلخيص لأصـول جامعة في المصـائب والمحن في تفسير ابن القيم رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى:

☜ أن ما يصـيب المؤمنين من الشـرور ليس كحال ما يصـــيب من حُرم الإيمان؛ لأن المؤمن يجد مع البلاء من الرضـا والاحتسـاب والصـبر وحسـن الظن ما يخفف وقعه عليه.

☜ وأن المؤمن يُحمل عنه بحســـب ما في قلبه من الإيمـان والإخلاص والطـاعـة؛ فيمنحـه اللّٰه من القوة مـا يناســـب ما نزل به، حتى إن البلاء الذي لو نزل بغيره لهدمه، يحمله هو بتثبيت اللّٰه ومعونته.

☜ وأن محبـة اللّٰه إذا تمكنـت في القلـب، هـان على العبد ما يلقاه في سبيل مرضاته، واستحلى مرارة الصبر لما يرجوه من القرب والثواب.

☜ وأن ابتلاء اللّٰه لعبده المؤمن قـد يكون كـالـدواء

الذي يســـتخرج منه أدواء لو بقيت فيه أهلكت قلبه أو نقصت ثوابه.

☜ وأن المصـــائب من الأمور الملازمة للبشـــر، فلا يخلو الإنســان من بلاء في نفســه، أو ماله، أو عرضــه، أو أهله ومن يحب.

☜ وأن لله في ذلك حكمًا عظيمة؛ منها تمحيص القلوب، وإظهار الصـــادق من الكاذب، وتربية المؤمن على القيام بوظيفته وســـط اختلاف الناس وتعارض إراداتهم وما ينشأ عن ذلك من الأكدار.

وهذه الأصول لا تعني أن المؤمن لا يتألم، ولا أن كل مبتلى يدرك حكمة بلائه، وإنما تعني أن الإيمان يمنح المحنة معنى، ويمنعها من أن تصـــبح عبثًا مظلمًا لا غاية له.

البلاء يكون بالخير والشر

الابتلاء في أصـــل اللغة يدور على الاختبار والامتحان، ولا يختص بالمصائب وحدها.

قال الله تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّـــرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فـالفقر اختبـار، والغنى اختبـار. والمرض اختبـار، والصـــحة اختبار. والمنع اختبار، والعطاء اختبار. والجاه ابتلاء كما أن فقده ابتلاء.

وقد يكون امتحان النعمة أشـــد خفاء من امتحان المصيبة؛ لأن الشدة توقظ الإنسان وتدفعه إلى التضرع، أما النعمة فقد تغره، وتشغله، وتوهمه الاستغناء.

قال تعالى:

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَـنَاتِ وَالسَّـيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[الأعراف: ١٦٨].

فالعبد في جميع أحواله ممتحن: أيشــكر إذا أعطي؟ وأيصبر إذا مُنع؟ وأيتواضع إذا رفع؟ وأيرجع إذا نُبه؟

هل كل مصيبة عقوبة؟

ليس كـل بلاء عقوبـة، كمـا أن كـل بلاء لا يكون بالضرورة دليلًا خاصًا على محبة الله لصاحبه.

فقد يكون البلاء تكفيرًا للسـيئات، أو رفعًا للدرجات، أو تمحيصًـــا للإيمان، أو ردًا للعبد إلى ربه، أو وقاية من شر أعظم، وقد يكون عقوبة وإنذارًا بسبب الذنوب.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَصَـــابَكُمْ مِنْ مُصِـــيبَةٍ فَبِمَا كَسَـــبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال النبي ﷺ:

«مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّـوْكَةِ يُشَـاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». [صحيح البخاري (٥/ ١١١)].

وعن سـعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قلتُ: يا رسـولَ اللَّهِ، أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قال ﷺ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ،

فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ». [سنن الترمذي (٤/ ٦٠٢)].

فالبلاء قد ينزل بالعاصي تأديبًا، وبالصالح رفعة، وبالأنبياء إظهارًا لكمال عبوديتهم ورفعة لمنازلهم.

ولا يستطيع الإنسان أن يجزم في مصيبة بعينها بمراد الله الغيبي منها، لكنه مأمور في جميع الأحوال أن يتوب، ويصبر، ويراجع نفسه، ويحسن الظن بربه.

ولذلك فالتفريق الشائع بأن ما يصيب العاصي يسمى بلاءً، وما يصيب المطيع يسمى ابتلاءً، لا يثبت من جهة الاستعمال الشرعي واللغوي؛ فالبلاء والابتلاء كلاهما يأتيان في الخير والشر، والعبرة بحال العبد وحكمة الله في المقدور.

البلاء ليس دائمًا دليل غضب

لو كان مجرد نزول البلاء علامة غضب، لما كان الأنبياء أشد الناس بلاء.

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ألقي في النار، وأمر بذبح ابنه، ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد يوسف وأخاه حتى ابيضت عيناه من الحزن، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ألقي في الجب وبيع عبدًا وسجن ظلمًا، وأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مسه الضر، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قاسى فرعون وأذى قومه.

أما نبينا ﷺ، فقد عاش يتيمًا، وفقد أمه وجده وزوجه وأولاده، وأوذي وحوصر، وأخرج من أحب البلاد إليه، وشج وجهه، وكسرت رباعيته، وقُتل عمه حمزة رضي الله عنه.

ومع ذلك كانوا أكرم الخلق على الله جَلَّ جَلَالُهُ.

فليس السؤال الأهم: لماذا نزل بي البلاء؟ بل: ماذا أحدث البلاء في قلبي؟ هل ردني إلى الله أم أبعدني؟ هل

أورثني التوبة والتواضع، أم زادني اعتراضًا وقسوة؟

البلاء تمحيص للقلوب

قال الله تعالى:

﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ [العنكبوت: ١-٣].

فالابتلاء يمتحن الدعاوى، ويكشف معادن النفوس، ويظهر صدق الإيمان من زيفه، ويميز من يعبد الله على يقين ممن لا يثبت إلا ما دامت الدنيا تجري على هواه.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ:

"الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه".

وليس معنى قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [العنكبوت: ٣] أن الله لم يكن عالمًا بهم من قبل، تعالى الله عن ذلك، وإنما يظهر بالابتلاء ما سبق في

علمه، فيقع الجزاء على العمل الذي تحقق وظهر.

البلاء دواء للقلب

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللّٰهُ في كتابه [إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان]:

"إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت ثوابه، وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة.

وقد تكون في القلب أمراض لا يكشفها الرخاء: عجب خفي، أو اعتماد على الأسباب، أو اغترار بالقوة، أو شدة تعلق بالخلق، أو توهم الاستغناء؛ فتأتي المحنة لتكشف الداء، ثم تدفع العبد إلى علاجه".

وقد قال رَحِمَهُ اللّٰهُ في موضع آخر:

"إذا أراد بعبد خيرا سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه، أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا، وهي

عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقربه". [زاد المعاد (١٧٣/٤)].

وليس معنى هذا أن كل مبتلى قد صار بمجرد المصيبة مهذبًا نقيًّا؛ فالبلاء قد يكون دواء، لكن الانتفاع بالدواء يتوقف على حسن تلقيه بالصبر والتوبة والافتقار.

البلاء يصنع الإنسان

لقد علّمني البلاء أن المحن قد تصلح في الإنسان أمورًا لم يكن يشعر بفسادها؛ فتهذب غروره، وتكسر عجبه، وتعيد ترتيب اهتماماته، وتكشف له حقيقة نفسه، وتعلمه الصمت والحكمة والتأني.

فالبلاء يربي الرجال والنساء، ويكسبهم خبرة في التعامل مع حوادث الزمن، ويعلمهم أن الحياة لا تجري دائمًا كما يريدون.

وقد ينشأ الإنسان في سعة ورعاية، فلا يعرف من نفسه مقدار الصبر ولا تحمل المسؤولية، حتى تنزل به المحنة، فتستخرج منه قوة لم يكن يعلم أنها كامنة فيه.

لكن لا يصح تمجيد الألم لذاته، فالمؤمن يسأل الله العافية، ولا يطلب البلاء، وإنما إذا نزل به استخرج منه ما يستطيع من الهداية والإصلاح.

البلاء يعرفنا قدر النعم

كم من نعمة نرفل فيها صـباح مسـاء ولا نشـعر بقيمتها؛ لأن دوامها جعلها في أعيننا أمرًا معتادًا.

فإذا سـلب بعضـها أدركنا أن التنفس بلا ألم نعمة، والنوم الهادئ نعمة، والحركة نعمة، واجتماع الأهل نعمة، والأمن نعمة، وصفاء القلب نعمة.

فالمرض يعرف الإنسان قدر الصحة، والفقد يعرفه قدر الاجتماع، والخوف يعرفه قدر الأمن، والعسر يعرفه قدر السعة.

وقد يخرج العبد من البلاء شاكرًا لنعم عاش فيها سنين طويلة دون أن يراها. ومن هنا كانت المحنة بابًا لاستعادة البصيرة، حتى لا يعود الإنسان بعد العافية غافلًا عما بقي بين يديه.

البلاء يعلمنا الشوق إلى الجنة

من لم ير من الدنيا إلا صفوها قد يضعف شوقه إلى دار لا مرض فيها ولا موت ولا فراق.

أما من ذاق ألم الدنيا، وعرف أن نعيمها منغص، وأن أحبابها يفارقون، وأن الأجساد فيها تضعف وتهرم، ازداد شوقه إلى قول الله تعالى:

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وإلى قوله سبحانه:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وهذه من أعظم ثمرات الابتلاء: أن ينقل القلب من طلب الخلود في الفاني إلى الاستعداد للباقي.

البلاء يفتح باب الدعاء

من أعظم ما يستخرجه البلاء من القلب عبادة الدعاء.

فالإنسان وقت الشدة يلهج بذكر الله، ويتتبع أوقات الإجابة، ويطرق باب مولاه ليلًا ونهارًا، ويعلم أن الخلق مهما ملكوا لا يستطيعون أن يمنحوه شيئًا لم يكتبه الله له.

والدعاء ليس مجرد وسيلة إلى قضاء الحاجة، بل هو عبادة وإظهار للافتقار واعتراف بكمال قدرة الله ورحمته.

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

"والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدفعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن". [الجواب الكافي]

وقد يتأخر المطلوب، ويبقى للعبد من الدعاء قرب لم يكن ليبلغه لولا حاجته. وكم من حاجة لم تقض في

الوقت الذي أراده الإنســـان، لكنها فتحت له بابًا من معرفة الله والافتقار إليه كان أعظم من الحاجة نفسها.

ومن أدعية الكرب الثابتة:

«اللَّهَ اللَّهَ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». حسن

وفي الصــحيحين من حديث ابن عباس: أن رســول الله ﷺ كـان يقول عنـد الكرب: «لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

و: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِـي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ». [صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٣٦١)].

ودعوة ذي النون:

﴿لَا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ سُــبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧].

البلاء يعلم الرضا بالقضاء

قال الله تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

فمن آمن أن ما أصـــابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، هدأ قلبه، وعلم أن الجزع لن يرد فائتًا، وأن الاعتراض لن يغير مقدورًا.

والرضـا لا يعني ألا يتألم الإنســان، ولا أن يمتنع عن العلاج أو الســعي في إزالـة الضــر، ولا أن يكتم حزنـه الفطري؛ فقد بكى الأنبياء وتألم الصالحون.

وإنما الرضـا أن يبقى القلب مسـلمًا لله، لا يتهمه في حكمته، ولا يعترض على عدله، ولا ييأس من رحمته.

وقد قال أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ومع ذلك أثنى الله عليه فقال:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

فإظهار الألم لله وطلب كشـــفه منه لا ينافي الصـــبر؛ وإنما المذموم هو التسخط على الله واليأس من رحمته.

حسن الظن بالله وسط المحنة

لقد علّمني البلاء أن أحسن الظن بربي، وأن أعلم أن الله أرحم بي من نفسي، وأعلم بمصلحتي، وأحكم في تدبير أمري.

وفي الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي».

[صحيح البخاري (٩/ ١٢١)، صحيح مسلم (٨/ ٩١)].

وحسن الظن بالله ليس أماني مجردة من العمل، بل رجاء يصاحبه صدق التوبة، وبذل السبب، والصبر، وانتظار الفرج.

فمن أحسن الظن بالله علم أن رحمته لا تنقطع، وأن الله لا يضيع إيمان عبد مؤمن، ولا تغيب عنه دموعه، ولا يخفى عليه أنينه.

وحين تنقطع الأسباب، لا ينقطع رجاء المؤمن؛ لأن له ربًا قديرًا يخلق الأسباب، ويجبر كسر المنكسرين، ويسد خلل المتوكلين.

قد يكون المنع حماية

قد يرى العبد المنع حرمانًا، ثم يتبين له بعد حين أنه كان حماية، ويرى التأخير إهمالًا، ثم يكتشف أنه كان إعدادًا، ويرى انكسار الطريق نهاية، ثم يجده بداية لطريق خير منه.

قال الله تعالى:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢١٦].

غير أن المؤمن لا يجزم بأن كل حكمة ستظهر له في الدنيا؛ فقد يظل بعض البلاء سرًا لا يدركه إلا في الآخرة، لكنه يوقن أن الله لا يظلم مثقال ذرة، وأن أقداره دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

مع العسر يسر

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٥-٦].

وقد ذكر أهل العلم أن «العسر» جاء معرفًا في الموضعين، بينما جاء «يسرًا» نكرة مكررًا، ولذلك اشتهر عن السلف قولهم: لن يغلب عسر يسرين.

وهذه الآية لا تعني أن كل بلاء ينتهي سريعًا بالصورة التي يريدها الإنسان، لكنها تعلمه أن العسر لا ينفرد، وأن الله يجعل معه من ألطافه وتثبيته وأجره وفرجه ما يعين القلب على احتماله.

وقد يكون اليسر كشف البلاء، وقد يكون قوة على تحمله، أو قربًا من الله، أو صرفًا لضر أعظم، أو أجرًا مدخرًا في الآخرة.

فالمؤمن لا يحصر لطف الله في صورة واحدة، ولا يشترط على ربه شكل الفرج ووقته.

الصبر الجميل

قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

فجمع بين الصبر والرجاء، ولم يجعل حزنه طريقًا إلى اليأس.

وقد بكى حتى ابيضت عيناه من الحزن، ومع ذلك قال لبنيه:

﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فالصبر الجميل لا يمنع الدموع، ولكنه يمنع القنوط. ولا يمنع الشكوى إلى الله، ولكنه يمنع الشكوى من الله.

والعاقل يعلم أنه إن لم يصبر صبر الاختيار أول البلاء، انتهى غالبًا إلى صبر الاضطرار بعد أن يكون قد

جمع على نفسه ألم المصيبة وألم الجزع.

ولهذا قال بعض الحكماء: "العاقل يصـــنع في أول يوم من أيام المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام".

انتظار الأجر يهون الألم

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال سبحانه:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾

[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

فالمؤمن لا يرى ألمه ضائعًا، ولا دموعه منسية، ولا صبره عبثًا.

وفي الحديث:

«يَودُّ أهْلُ العَافيةِ يَوْمَ القِيامةِ حِينَ يُعْطَى أهْلُ البلاءِ الثَّوَابَ لَو أنَّ جلُودَهُمْ كانَتْ قُرِضَتْ في الدُّنْيا بالمَقاريضِ». [سنن الترمذي (٤/ ٤٠٨)].

ومعنى ذلك أن أهل العافية حين يرون عظيم ما أعده الله للصابرين يتمنون لو نالهم من البلاء ما ينالون به مثل ذلك الأجر، لا أن المسلم يطلب المصيبة؛ فقد أمر النبي ﷺ بسؤال الله العفو والعافية.

البلاء قد يكون طريقًا إلى التمكين

كثير من مواطن التمكين يسبقها امتحان وصبر.

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

غير أن التمكين لا يقتصر على ملك أو منصب أو انتصار ظاهر؛ فقد يكون أعظم تمكين أن يمكن الله الإيمان في القلب، وأن يرزق العبد الصبر والرضا، وأن يخرجه من المحنة ثابت الدين، سليم اليقين.

وقد يرفع الله البلاء ويعوض صاحبه في الدنيا، وقد يدخر له ثوابه في الآخرة. فلا يصح أن يوعد كل مبتلى بتمكين دنيوي معين، وإنما يقال: الصبر لا يضيع عند الله، وعاقبة التقوى محمودة في الدنيا أو الآخرة.

مجاهدة الحياة موطن الفضائل

أشـار الرافعي إلى أن الفضـائل لا تظهر حقيقتها في العزلة الخالية من أسباب المجاهدة، فقال: "وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كان فيمن انقطع في صـحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟

وأيم الله إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعًا، لهو الخالي من الفضائل جميعًا".

يعني؛ فيما انقطع عن الناس ولم يعرض له ما يمتحن هذه الأخلاق ويجاهدها؟

فالصـدق يظهر حين توجد دواعي الكذب، والأمانة تظهر حين تتاح الخيانة، والصبر يظهر عند الألم، والعفو يظهر عند القدرة، والوفاء يظهر حين تتغير الأحوال.

ومن هنا كان البلاء والمخالطة واختلاف الإرادات

ميدانًا تظهر فيه حقائق الإيمان والأخلاق.

والإنسان مدني بالطبع، لا بد له من الاختلاط بالناس، ولا بـد أن يقع بســـبـب اختلاف الطبـاع والتصـــورات والمصـالح كثير من الأكدار. والمؤمن مأمور وسـط ذلك أن يقوم بوظيفته: يعدل، ويصـــبر، ويعفو، ويؤدي الحق، ولا يجعل أذى الناس مبررًا لظلمهم أو ترك واجباته.

النظر إلى من هو أشد بلاء

من أسباب تسكين النفس أن ينظر الإنسان إلى من هو أشــد منه ابتلاء، لا ليســتهين بألمه، وإنما ليعرف ما بقي عنده من نعم، ويستعين بذلك على الصبر.

وقد قص الله علينا خبر أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قال:

﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

فـذكر أحوال المبتلين يربي القلـب على الصــبر، ويمنعه من توهم أنه وحده الذي أصابه الضر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

"ومن علاجه أن يطفئ نار مصــيبته ببرد التأســي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل واد بنو سعد، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة؟! ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حســرة؟! وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل، إن أضــحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن

سرت يومًا ساءت دهرًا، وإن متعت قليلًا خيرة إلا ملأتها عبرة، ولا سـرته بيوم سـرور إلا خبأت له يوم شـرور". [زاد المعاد].

ومع ذلك، لا يصح أن يقال للمبتلى بقسوة: غيرك أشـد منك؛ فالألم يحتاج إلى رحمة ومواساة قبل الموعظة، ولكل قلب طاقته وحاله.

حمد الله داخل المصيبة

من فقه البلاء أن يرى الإنســـان ما بقي، ولا ينظر فقط إلى ما ذهب.

وقد كان شريح رَحِمَهُ اللّٰهُ يقول:

"إِنِّي لأصــاب بالمصــيبة، فَأَحْمَد الله عز وَجل عَلَيْهَا أَربع مَرَّات، أَحْمَده إِذْ لم تكن أعظم مِمَّا هِيَ، وأحمده إِذْ رَزَقَنِي الصَّــبْر عَلَيْهَا، وأحمده إِذْ وفقني للاســترجاع، لما أَرْجُو فِيــهِ من الثَّوَاب، وأحمــده إِذْ لم يَجْعَلهَــا فِي ديني".[الفرج بعد الشدة].

ولما قُطعت رجل عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللّٰهُ، وفقد أحد أبنائه، حمد الله على ما أبقى، وقال في معنى كلامه: كان لي أطراف أربعة فأخذ واحدًا وأبقى ثلاثة، وكان لي أبناء فأخذ واحدًا وأبقى غيره، ولئن ابتلى فلطالما عافى.

وهـذا لا يعني إنكـار الألم، وإنمـا يعني ألا تحجبنـا النعمة المسلوبة عن النعم الباقية.

أسباب مشروعة لدفع البلاء وكشفه

المؤمن لا يستسلم للمصيبة استسلام العاجز، بل يجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب.

ومن أعظم أسباب الفرج:

☜ تقوى الله تعالى، قال سبحانه:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

☜ والتوبة والاستغفار؛ لأن الذنوب من أسباب حرمان الخير ونزول المكاره، ولأن التوبة خير ما يستقبل به العبد أقدار الله، سواء علم أن مصيبته بسبب ذنب أم لم يعلم.

☜ والدعاء، ولا سيما في جوف الليل، فقد قال النبي ﷺ:

«يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ مَنْ ذَا

الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ». [صحيح مسلم (٢/ ١٧٥)].

☜ والصدقة وصنائع المعروف؛ فالإحسان إلى الخلق من أعظم أسباب إحسان الله إلى العبد، قال تعالى:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

☜ والذكر وتلاوة القرآن، فبذكر الله تطمئن القلوب، والقرآن شفاء لما في الصدور.

☜ والعلاج الحسي والنفسي، واستشارة أهل الخبرة؛ فالأخذ بالأسباب المشروعة لا ينافي التوكل، بل هو من تمامه.

العلاج لا ينافي الرضا

الرضـــا بالقضـــاء لا يعني ترك العلاج، ولا تعطيل الأسباب، ولا السكوت عن الظلم.

فالنبي ﷺ تداوى، وأمر بالتداوي، واتخذ الأسـباب في سفره وحربه ومعاشه.

فالتوكل عمل قلبي يقوم على اعتماد القلب على الله، مع مباشـــرة الأســـباب التي أذن بها. أما ترك الأســـباب مع القدرة عليها فليس هو كمال التوكل، كما أن الاعتماد عليها ونسيان مسببها خلل في التوحيد.

وعلى المبتلى أن يجمع بين الدعاء والعلاج، وبين الصـبر والسـعي، وبين الرضـا ومحاولة تغيير ما يمكن تغييره، ثم يفوض النتيجة إلى الله.

حين يتحول الحزن إلى خطر

الحزن والقلق عند المصائب أمران فطريان، ولا يأثم الإنسان بمجرد وجودهما.

لكن إذا تجاوز الحزن حده حتى دفع صاحبه إلى اليأس، أو تعطيل حياته، أو إهمال بدنه وحقوقه، أو التفكير في إهلاك نفسه، وجب عليه طلب المساعدة من أهل الاختصاص والثقات.

وليس كل اضطراب نفسي دليلًا على ضعف الإيمان، كما أن الرقية والدعاء لا يمنعان مراجعة الطبيب المختص.

والنفس أمانة، وحفظها مقصد شرعي، ولا يجوز للمبتلى أن يستسلم للأفكار المهلكة.

ومن كلام الرافعي: "إذا لم يكن الإيمان بالله اطمئنانا في النفس على زلازلها وكوارثها لم يكن إيمانا، بل هو دعوى بالفكر أو اللسان لا يعدوهما، كدعوى

الجبان أنه بطل، حتى إذا فجأه الرَّوْعُ أحدث في ثيابه من الخوف!".

ماذا علّمني البلاء؟

☜ لقد علّمني البلاء أن العبد ضعيف وإن ظن نفسه قويًا.

☜ وعلّمني أن الأسباب مهما عظمت تبقى تحت سلطان الله.

☜ وعلّمني أن الصحة تاج لا يعرف قدره تمامًا إلا من ذاق المرض.

☜ وعلّمني أن الدعاء حياة القلب، لا مجرد وسيلة إلى قضاء الحاجات.

☜ وعلّمني أن السجود موطن جبر لا يعرفه إلا المنكسرون.

☜ وعلّمني ألا أحكم على أقدار الله من صفحاتها الأولى.

☜ وعلّمني أن بعض المنع حماية، وبعض التأخير رحمة، وبعض الفقد تربية، وإن لم تظهر الحكمة في

الحال.

☜ وعلّمني أن أرحم المبتلين، وألا أزايـد عليهم في صبرهم، وألا أختصر آلامهم في كلمات عابرة.

☜ وعلّمني أن كل بلاء دون بلاء الدين عافية.

☜ وعلّمني أن الفرج قد يأتي في صـورة تغير الواقع، وقد يأتي في صــورة تغير القلب، حتى يصــبح قادرًا على احتمال الواقع.

☜ وعلّمني أن النعيم لا يـدرك تمام إدراكـه إلا من عرف التعب، وأن الراحة الحقيقية ليسـت في خلو الحياة من المحن، بل في سكون القلب إلى الله وسط المحن.

☜ وعلّمني أنني لله، وأنني إليه راجع؛ فلا أنا أملك نفسي استقلالًا، ولا الدنيا موطني الأخير، ولا الألم خاتمة الحكاية.

خاتمة

وهكذا تمضي سنة الله في الابتلاء: ابتلاء للصبر، وابتلاء للشكر، وابتلاء للتوجيه، وابتلاء للأجر، وابتلاء للتمحيص.

فليس الشأن أن تمر بنا المحن؛ فإنها مارة بكل أحد، ولكن الشأن: كيف نخرج منها؟

هل نخرج بقلوب أقرب إلى الله، أم بقلوب أشد قسوة؟ هل نزداد معرفة بضعفنا ورحمة بالناس، أم نزداد اعتراضًا ويأسًا؟

إن البلاء قد يؤلم الجسد، لكنه قد يبني الروح. وقد يسلب من الإنسان بعض محبوباته، لكنه يرده إلى محبوبه الأعظم. وقد يغلق في وجهه أبواب الخلق، ليفتح له باب الخالق جَلَّ جَلَالُهُ.

والمبتلى، كما صوره الرافعي، قد يكون داخل محنته كالكائن في قشرة البيضة؛ يظنها سجنًا محضًا، بينما

تجري في داخله عملية تشـــكل طويلة، حتى يخرج بإذن الله خلقًا آخر.

فيا من أضـناه البلاء، لا تظن أن الله قد نسـيك، ولا أن دعاءك ضـاع، ولا أن دموعك ذهبت سـدى، الزم بابه، وأحســـن الظن به، وخذ بالأســـباب، ولا تحمل هم الغد قبل مجيئه، ولا تضف إلى بلائك ما ليس فيه.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْـبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

اللهم اجعل بلاءنا سببًا لقربنا منك، وتطهيرًا لقلوبنا، وتكفيرًا لسيئاتنا، ورفعة في درجاتنا.

اللهم ارزقنا عند البلاء صـــبرًا جميلًا، وعند النعمة شـكرًا صـادقًا، وعند القضـاء رضـا وتسـليمًا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا.

اللهم اكشـــف الضـــر عن كل مكروب، واشـــف كل مريض، واجبر كل مكســـور، وارحم كل مبتلى، وأبدل

خوفنا أمنًا، وحزننا ســكينة، وضــعفنا قوة بك، إنك أنت أرحم الراحمين.